

أدب الاشتباك: تخریب ما يتوجب تخریبه

باسم خندقجي

أسير محرر، فلسطين

جرى التفكير والتأمل بمفهوم أدب الاشتباك في أوج الإبادة الشاملة التي يواجهها الأسرى الفلسطينيون، منذ 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، وحتى الآن، وهنا في المنفى ما زال التأمل متوقفاً في هذا المفهوم والمشروع الذي لم يكتمل بعد. وفي هذه الإضاءة محاولة لترسيخ مداخل تعريفية بهذا المفهوم المتعلق بالإنتاج الثقافي-الأدبي والمعرفي-النظري في مواجهة العنصرية والفاشية والاستعمار. تتحرى هذه الإضاءة، على أوليتها، ترسيم حدود المفهوم، ونقض أسطوري الحياد والموضوعية، وتقترح بعض المخارج من حقل ألغام الآخريّة والاختلاف (بما في ذلك تفكيك ذكورية النتاجات الثقافية والمعرفة حتى المشتبكة منها). ومن ثمّ تذهب إلى تحرير المتن والاشتباك مع التاريخ المؤسس لاستعلائية المعارف الغربية، ومنها الصهيونية. وأخيراً تسعى الإضاءة إلى فتح النقاش حول بعض تمثيلات أدب الاشتباك، ومنها: كينونة النكبة الكولونيالية، والاشتباك مع المعاناة لا اعتيادها، ومواجهة التفاصيل الاستعمارية.

مدخل: محاولة تعريفية

ينطلق مفهوم أدب الاشتباك من تساؤل تتجلى مركزيته في كيفية كتابة أدب ضدّ استعماري داخل السياق الاستعماري. وحول هذا التساؤل تدور تساؤلات أخرى، من أهمها: إلى أي مدى نجح الأدب العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً في اختراق الوعي الشامل الخاص بالأدب العبري الصهيوني والمعرفة الصهيونية؟ إن حضور الآخر الصهيوني في النصّ أو الخطاب الأدبي العربي، لم يكن ليتجاوز الحضور النمطي التعيس الذي لا يكفل تسليط الضوء على كافة مناجي وأبعاد السياق العام الذي يتكوّن فيه المجتمع الصهيوني. ويمكن القول إن الأدب العربي عموماً وقع في أسر تلك الصورة النمطية القاضية فقط بوحشية الصهيوني ودهائه وخبثه وقدرته على التحايل، دون الخوض في أعماق ودهاليز الحركة الصهيونية كحركة أيديولوجية انطلقت أساساً من مجموعة أفكار وسرديات مختلفة. وبذا، فقد جرى تحويل الصهيوني وتمثيله في النصّ العربي تمثيلاً مشوهاً ومُصمّماً أيضاً.

إنّه حضور بائس وضعيف لا يشي بالإمكانات الهائلة للوعي الصهيوني كوعي قومي عنصري واستعماري مهووس بالتفاصيل الصغيرة والسيطرة. ومن هنا، يجب أن يتحرر المثقف العربي من أسر هذه الصورة النمطية بطريقة تؤدّي إلى إثبات السياق الاستعماري الكولونيالي لدولة "إسرائيل" الصهيونية، ومن ثمّ الاشتباك مع المخرجات الثقافية

والأدبية والفكرية العامة للرؤية الصهيونية. وعندما يعي المثقف العربي والفلسطيني الاشتباك بهذا المعنى، يصبح منهجاً نقدياً مُعبأً بقدرات فكرية ومعرفية جديدة عن دولة "إسرائيل"، بكافة تمثيلاتهما وتجلياتها. ولن يتسنى حدوث ذلك دون الإعلان عن فتح الجبهة الثقافية في وجه المستعمر الصهيوني—جبهة قائمة على أسس ثقافية ونقدية مغايرة تعبر عن مدى حاجة الفلسطيني اليوم إلى فهم وإدراك محدّدات آخره الصهيوني وتسليط الضوء على الأبعاد الخفية للصهيونية كحركة معرفية مشحودة بالعنصرية ومرتبطة ارتباطاً مخيفاً مع القوة الغاشمة. وعليه، تصبح الثقافة النقدية متحرّكة ضمن معادلة أدب الاشتباك في حركة متجدّدة تحمي المثقف العربي والفلسطيني من التورط في العنصرية وقراءة الصهيوني كما قرأ الصهيوني الفلسطيني ومثله في نصوصه وخطابه العام ككائن خاضع وصامت وسلبي ومنفعل، وجرى تصنيفه مسبقاً كعنيف ومخرّب وإرهابي ودموي، حيث يعلن الأدب الصهيوني بذلك عن انحيازه الأيديولوجي إلى الرؤى الاستشراقية الخاصة بالحركة الصهيونية.

إنّ أدب الاشتباك هو أدب مضادّ للعنصرية والكولونيالية، ويعلن عن انحيازه التام مع المقهورين والمهمّشين والمستضعفين، ويعبر عن قضايا خاصة وعمامة ضمن جدلية العام والخاص. وعلى ذلك، تغدو فلسطين وحضورها في النصّ والخطاب الثقافي العربي حضوراً محلياً وكونياً في السياق ذاته. فالحضور الكوني الذي يرفض خيارات القومية الضيقة والعنصرية والتصنيف والجوهرانية الشوفينية، وينتقد الصهيوني المُستعمر انتقاداً معرفياً أخلاقياً، يؤدّي في نهاية المطاف إلى تبلور خطاب الحقّ الأخلاقي الفلسطيني. فالفلسطيني اليوم، في نضاله ضدّ مستعمره وسياسات الموت والقتل الخاصّة به، يتوجّب عليه إحالة ركام غزّة ودمارها إلى منصّة أخلاقية يشرف منها على العالم مقدّماً خطاباً يعلن به عن حاجته إلى مواجهة تفكيك إنسانيته ومحو ملامحه، بحيث يكون خطاباً كونياً نقدياً قد يسفر عن جدوى تفي بعود الصمود والإرادة والفداء في أرض غزّة التي تشبّك اليوم لتستعيد إنسانيّتها وإحساسها بما تبقى من إنسانية العالم.

التصدّيات: أسطورة الحياد في أدب اللا-اشتباك

لم يُعرف القرن التاسع عشر في التاريخ الحديث بحقبة الثورات و تبلور القوميات فحسب، وإنما عُرف أيضاً بوصفه تاريخاً أوروبياً و غربياً حُدّدت به المعايير والمعتّمات المعرفية والعلمية كافة التي شكّلت في السياق الشامل الذي أُعيد فيه تشكيل الإنسان الأوروبي كإنسان خارق قادر على صناعة التاريخ وبناء الحضارة الجديدة وتشكيلها بوصفها حضارة الرجل الأبيض. ومنذ اللحظة الأولى للخلق المعرفي، باعتباره خلقاً مميّزاً ومتكاملاً، أصبحت الخصوصية الأوروبية والغربية هي الأساس في تشكيل المعرفة وتلقّيها أيضاً. وعلى ذلك، صار "من حقّ" الغربي الحضاري في السياق المعرفي الكولونيالي أن يحدّد قواعد اللعبة المعرفية وشروطها، تلك اللعبة المتمثّلة بمعتمدات معيّنة صُمّمت خصيصاً لمن أسقطوا عن متن التاريخ والحضارة لأنهم ينتمون إلى عوالم أخرى ليست غربية. وهنا، يبرز وجه من يتوجّى تلقّي المعارف والتفاعل معها كمفاهيم وأطر ومصطلحات ونظريات ومعتمدات شكّلت في السياق المعرفي المركزي الغربي، مفاهيم تكوّنت ضمن طقوسية خاصة بالرجل الأبيض الذي يؤمن بقدرته على إعادة خلق العالم وتشكيله، ولكن ضمن الرؤية الغربية الشاملة، حيث يصبح من حقّ عالم الاجتماع

الغربي، مثلاً، أن يضع ما يشاء من المفاهيم و المحدّدات التي تكفل، بحسب رؤيته، تأسيس الإطار النظري الذي يتوجّب على غير الغربي أن يلتزم به، لا بل أن ينتمي إليه خلال عملية تلقّيه العلوم والمعرفة.

ولعلّ من أهمّ المعتمدات التي تُعدّ بمثابة التذكرة التي يستطيع من خلالها غير الغربي العبور إلى العالم الأكاديمي الغربي "الباهر"، هو معتمد الحياد أو معياره. أي أن يلتزم الكاتب أو الباحث بأسس البحث العلمي ومناهجه، وأن يتوجّه الشفافية والمصادقية، والأ يقع أسيراً للتعاطف والتفاعل مع موضوعه أو مادّته البحثية، وألاّ يسمح لتوجّهاته السياسية أو الفكرية بالتأثير على مساره ونمطه المعرفي وأسلوبه العلمي... أي أن يقوم بتنحية سياسات الهوية وسياسات المعرفة الخاصّة به جانباً عندما يتناول بالبحث والوصف والتحليل والنقد والتمثيل قضايا وإشكاليّات تخصّ بيئته أو متعلقة مع واقعه ومجتمعه.

وأما عندما نذهب لقراءة واقع القرن التاسع عشر، "التنويري" و"الحدائي" و"الجديد"، فسنجد أنّ الحياد والموضوعية العلمية بوصفها درّة تاج المعرفة الأوروبية، لا مكان لها في المحافل العلمية والمعرفية الغربية، بل هي مجرد حيلة ماهرة يمارسها الكائن الأبيض الموهوس بتفاصيل المعرفة التي ستجعل منه خالقاً لأسس المعارف بمشاربها المختلفة، حيلة يستطيع من خلالها احتجاز تطوّر اللا-غربي وقولبته ضمن نماذج محدّدة جرى تكوينها بعدم حيادية لتخرج في النهاية الحيادية الخاصة والتي يتوجّب على القادم من العوالم الأخرى أن يعتنقها ويلتزم بها في سياق تلقّيه للمعرفة أو تفاعله معها أو إنتاجها. وهي التي ستجعله يفتخر ويعتزّ بانتمائه لها لأنّها منحتة شرعية الدخول إلى عالم المعرفة الغربية ككاتب لا يُشقى له غبار في حقول العلوم والمعارف.

هذا هو الحياد بصيغته الحدائية الغربية بلا رتوش ولا تجميل، أن يقوم الكاتب بممارسة شؤونه التعليمية والمعرفية وهو يرتدي قفّازين في كفيّه وكمامة على أنفه أثناء معالجته وجعه وجرحه وآلام مجتمعه ومآسي شعبه، وأن يتوجّه الموضوعية. أمّا إذا قام بغير ذلك، وأعرب، ولو بتعابير خفيّة مشبعة بالتوريات والاستعارات عن تعاطفه أو تضامنه مع "مادته" المبحوثة أو المكتوبة، فإنّه لن يعبر إلى الضفة الأخرى نحو بوابات العلوم والمعارف ذات الأسوار العالية بحسب الأصول والتقاليد الغربية.

من هنا يأتي أدب الاشتباك باعتباره مجموع التمثيلات والمستويات الإبداعية للكائنات التي أسقطت من حسابات الحضارة الغربية بصيغتها الكولونيالية—يأتي ليُسقط من حساباته حاجته للاعتراف الأكاديمي والمعرفي الغربي بأنماطه التمييزية والإقصائية. يأتي أدب الاشتباك الذي يتراوح بين القصة القصيرة ورسالة الدكتوراه، لتحفيز الكتاب والفنانين والعلماء على عدم الارتباط بأسس ومعتمدات المعرفة الشاملة التي تسعى دوماً إلى عرقلة أيّ إمكانية لمضاهاتها ومنافستها، لا بل فضحها وكشف جوهرها الإقصائي والعنصري. وذلك من خلال اعتماد إجراءات الحرمان ونزع الشرعية الأكاديمية عن كل الذين يجروون على البحث عن خطاب معرفي جديد، كونيّ ومتعدد الأصوات والمشارب ونقديّ بامتياز، ولا يخجل فيه المثقف من التعبير عن كلّ ما يعتمل في صدره من قهر واضطهاد.

إنَّ على أدب الاشتباك، في سعيه نحو التحرُّر من الحياد بوصفته الغربية، ألا يقع في شرك التمييز والإقصاء، وألا يستسهل أيضاً التخفُّف من قواعد وأسس التفكير المنهجي وإنتاج المعارف بالأسلوب العلمي الصارم، وهي بالطبع القواعد المنعقدة من مركزانية المعرفة أياً كان مصدرها وسياقها التاريخي. إنَّ أدب الاشتباك في هذه الحالة هو أدب التعبير عن الرفض القاطع لكل أشكال وأنماط السيطرة الناتجة عن العلاقات السريَّة والمعلنة بين المعرفة الغربية والسلطة الغربية التي أنتجت في النهاية المعرفة الكولونيالية، ولكن رفض هذه المعرفة ومقاومتها بخطاب معرفي مغاير، أرحب وأجمل وأكثر كونية وإنسانية.

حقل الألغام: أنسنة الآخر في أدب الاشتباك

عند الخوض في أبعاد مفهوم أدب الاشتباك، ثمة أمر هام يلتبس على المتلقِّي في السياق العام للأدب ضدَّ الكولونيالي يتعلَّق بالأنسنة، إذ يأخذ بُعد الأنسنة منحى غامضاً يكاد يرتبط بتطبيع العلاقة مع هذا الآخر. غير أنَّ عملية أنسنة الآخر تعني في الأساس رفض التطبيع معه، والخوض في ترجمة هذا الرفض عبر البدء بإدراك أنَّ هذا الآخر الخارق والغامض والقادر على كل شيء هو إنسان في نهاية المطاف ويمتلك أنماط تفكير ووعياً شاملاً بلوَّره منطلقاً من دوافع معينة. والآخر الذي يجري التطرُّق إليه في أدب الاشتباك، هو الآخر المستعمر والقاهر والمضطهد، والذي غالباً ما يجري التطرُّق إليه في السياق الاستعماري في مستوياته المتعددة على أنه خارق للعادة، ويمتلك قدرات متفوّقة يعجز المستعمر عن امتلاكها، والأهمُّ أنه يعجز عن إدراكها.

وبهذا يغدو الآخر المستعمر كائناً مفارقاً وفوق طبيعي، ليس لأنَّ المستعمر والمقهور هو من يفكر بذلك فحسب، بل إنَّ الكينونة الخاصة بالكائن الكولونيالي المسيطر، تؤكِّد على ضرورة تفوقها لدرجة أنها تغدِّي هذا التفوق بممارسات ذهنية تكاد تكون ميتافيزيقية، وذات إطار أسطوري يكون الهدف منه إظهار الإعجاز الغربي بصيغته ذات المركزية الاستعمارية الذي يكفل تحقيق مهمَّة مزدوجة، مهمَّة إيمان المستعمر بأنَّه بات كائناً خارقاً للطبيعة وليس كبقية البشر، ومهمَّة مَوْضعة المستعمر والمضطهد في سياق إجباره على تذويت الكائن الكولونيالي المتعالي والخارق. وإثر هذا التذويت تشرع صورة الآخر المستعمر بالتكوُّن بتجليات متعددة في الشعور واللاشعور الجمعي والفردي للمستعمرين والمضطهدين. ولعلَّ وهذا ما يكفل إنجاز مهمَّة أخرى من مهمَّات المستعمر، ألا وهي تسهيل عملية الإدراك لدى المقهور والمستعمر. والمقصود بالإدراك هنا، أن يشرع المستعمر بتكوين تصوُّرات ومقولات تعزِّز من الاستعلاء الاستعماري وتسهم أيضاً في بلورة الصور النمطية والأحكام المسبقة عن الآخر.

إنَّ تكوين الأحكام المسبقة يعطي شعوراً بالارتياح وعدم الحاجة للخوض في أعماق الوعي الخاص بالآخر، ويؤدِّي أيضاً إلى الجهل والسطحية والعنصرية. ومن هنا يتوجَّب تحطيم هذه الصور النمطية، وإنزال الآخر المستعمر من مكانته الأسطورية واللادإنسانية. فكيف يمكن لبشر أن يهزم تئناً يقذف اللهب من فمه، أو ديناصوراً سوى في الأفلام الهوليوودية بالطبع؟ وعليه، كيف يمكن لمستعمر أن يهزم مستعمره ويحطِّم كينونته الكولونيالية وهو

يفكر به على أنه خارق للعادة؟ وعندما نضع أنسنة الآخر في السياق الاستعماري الصهيوني، سنجد أن ثمة تصورات هائلة محشوة بمقولات وأمثال وممارسات وصور نمطية وأحكام مسبقة قام الفلسطيني المستعمر بتدويتها خلال مواجهته للآخر الصهيوني، ما أدى إلى انغلاق وعي الفلسطيني على هذه التصورات. الأمر الذي ساهم بعدم إدراك الحاجة إلى إجراء حسابات ومعادلات عقلية تكفل اختراق الوعي الصهيوني. هذه الحاجة التي يدفعها إلى الظهور التساؤل التالي: ما هي محدّدات السياق الذي أحال "اليهودي" الذي كان في المحرقة النازية، الضحية الكبرى لتلك العقلانية الغربية الباردة والمخيفة... إلى كائن استعماري إقصائي وعنصري خارق للإنسانية وقلوب المعذبين والمضطهدين؟ وما هي الأسس التي شرّعت لطيار المقاومة الحربية الصهيونية أن يكون أباً حنوناً مع أطفاله في الصباح ويشاركهم إفطارهم قبل مضيئهم إلى مدرستهم، وفي المساء يتحوّل إلى آلة قتل وإبادة جماعية لأطفال غزة؟

هنا بالتحديد تبدأ عملية أنسنة الآخر الصهيوني، عندما يدرك الفلسطيني أن ثمة حياة يعيشها هذا الآخر مليئة بتفاصيل إنسانية تنزع عنه صفة الخارق المتعالي وتسمح للفلسطيني أيضاً بنزع إدراكاته المسبقة والمغلقة عن مستعمره وقَاتله. وبهذا لا يعود الصهيوني تئيباً بل إنساناً يمكن هزيمه في الوعي أولاً. وإذا قام الفلسطيني بعملية أنسنة آخره، فإنّ هذا ما سيكفل له أيضاً البدء بإعادة بناء وخلق سردّيته وخطابه الأخلاقي الذي يستطيع من خلاله إقامة السياق، لا بل الميدان الذي يمكن فيه تفكيك الكائن الاستعماري الخارق والإعجازي وإحالاته إلى مجرد إنسان يمكن هزيمه. ولعلّ هذا ما يكفله أدب الاشتباك حين يسلّط الضوء ويشتبك بصورة نقدية واعية مع الوعي الصهيوني الإقصائي والفاشي ليخرج الفلسطيني في النهاية إنساناً كامل الملامح ومنتمراً لفضيّته وسردّيته.

تفكيك الذكورية: أدب الاشتباك النسوي

غالباً ما تخفي الثورات وحركات التحرّر والنضال ضدّ أشكال الاضطهاد والاستعمار، في مستوياتها المتعدّدة، أبعاداً أبوية ذكورية، وقد يكون ذلك ناتجاً عن الهرمية المنضبطة والصارمة التي تؤدّي في النهاية إلى تأكيد سيطرة الجانب الذكوري وهيمنته في الحراك المناهض للاستعمار على البنى الرئيسية المتحكّمة في قيادة الحراك أو الثورة، ما يؤدّي أيضاً إلى التحكّم في بلورة السردية الشاملة بتجلياتها الرمزية المتعدّدة. والتي لا تركز ولا تمثّل إلاّ الصوت والمشهد البطولي للرجل. وفي خضمّ مقاومة الاستعمار وما يتعلّق به من سياسات سلطوية مضطهدة، تتعزّز السيطرة الذكورية بصورة انتشارية قادرة باسم البطولة على التحكّم في خلق الوعي الجمعي لدرجة أنّ المرأة، كشريكة طبيعية في النضال تجري عملية تذكيرها، أيّ إضفاء البعد الذكوري عليها لكي تعبر إلى مركز السيطرة. وبصورة عامة، فإنّ الذي يحدث هو اختزال لدور المرأة في الجوانب العاطفية والوجدانية والتحميسية، فهي أمّ الشهيد وزوجة الأسير وأخت المطارّد. وإذا كان هناك دور لها في سياق النضال والمقاومة فهو دور باهت ولا يمكن مراكمته وإحالاته إلى شراكة كاملة مع الرجل البطل. وبهذا، يغدو مبنى البطولة شاهقاً في ذكوريته دون أن يعني ذلك عدم قدرة المرأة على مشاركة الرجل، وإنّما يعود ذلك ربما إلى نخبوية بعض أشكال النضال واقتصارها على الرجل.

إنّ دور الأم والزوجة والأخت والحبّية في الصمود والدعم والتحفيز، هو دور مهم ومؤثّر، ولكنّه يسحق إمكانات

مشاركة المرأة للرجل في السياق العام للمقاومة أو الثورة، لا بل يقوم أيضاً بإعطاء مبررات الهيمنة والتحكُّمية الذكورية من منطلق أنَّ المرأة هي مصنع الرجال والبطولة. ولكنَّها لا تشارك في هذه البطولة ولا يجري تمثيلها في تجلِّيات وأشكال السردية بصورة تؤدِّي إلى لعبها أدوار مركزية شأنها كشأن الرجل في مرحلة الاستعمار وما بعد الاستعمار. وفي الحالة الاستعمارية الفلسطينية، لم يكن هناك تعالق أو ربط جدي بين مشاركة المرأة في النضال وتحزُّرها. أي أنَّ التناقضات الثانوية داخل المجتمع الخاصَّة بالمستوى النسوي لم يتمَّ إلحاقها بالتناقضات الرئيسية وإن كانت برامج ورؤى الأحزاب اليسارية والديمقراطية بشكل خاصَّ تتحدَّث عن ذلك في برامجها وأفكارها دون أن يكون هناك أيُّ إمكانية لعكس ذلك على أرض الواقع. وعلى الرغم من توفُّر صور رمزية للمرأة الفلسطينية على مدار تاريخ تبلور الحركة الوطنية الفلسطينية، واستعداد المرأة وقدرتها على التضحية، إلا أنَّ هذه الاستعدادية لم تُترجم مشاركة حقيقية تكفل تأنيث النضال ببعده الاجتماعي الداخلي وبعده الفوقي أيضاً، أي في عملية نسج الوعي الجمعي وخلقه.

وينعكس ذلك أيضاً في السردية الفلسطينية الذكورية التي ربما ساهمت المرأة للأسف في تعزيزها وقد قامت بـ"تذكير" هويِّتها في سبيل العبور إلى عالم التحكُّم الذكوري. وهذا ما أدَّى، بلا شكَّ، إلى عدم التركيز على صوت المرأة كإنسانة مضطَّهدة بالضرورة في السياق الاستعماري. ومن هنا، أيضاً، لا يمكننا إغفال أدوار الاستعمار الإقصائية في حرمان المرأة المستعمرة من مجالاتها الحيوية في سياق الصراع والاشتباك اليومي مع الاستعمار، إذ إن بنية الاستعمار هي بنية ذكورية بامتياز، وهي قائمة على العنف الذكوري واستعراض عضلات العنف الاستعماري بصوره الذكورية، ما يُقصي المرأة التي لا تحوز على إمكانيات البطل الذكر بيولوجياً على الأقل، بحسب النظرة الاستعمارية.

كما أنَّ تمثيل المرأة في الخطاب الأدبي الفلسطيني في أشكاله المتعدِّدة كالشعر والنثر، هو تمثيل نمطي لا يكفل استنهاض إمكانياتها من جهة، وتسليط الضوء على معاناتها وما تتعرَّض له من اضطهاد مزدوج من المستعمر، من جهة أخرى. إنَّ تمثيل واقع زوجة الأسير الفلسطيني أو أمه أو شقيقته أو ابنته أو رفيقته، هو تمثيل يتحايل على تفاصيل معيَّنة ساهمت في تعزيز السيطرة الذكورية على المرأة عبر القول إنَّ هذه المعاناة هي معاناة وطنية جمعية. وبهذا، يتحوَّل الخطاب العامُّ أيضاً إلى قاصع ومضطَّهد للمرأة لأنَّه يفصلها عن هويِّتها الخاصَّة وما تتعرَّض له من قمع نفسي وجسدي في غالب الأحيان. وهنا تحديداً تتجلَّى الطقوسية الذكورية القاضية بإجراء سياسات معيَّنة تسمح بدخول المرأة إلى السردية والمجال العام، أو المجال الأدبي الفلسطيني مثلاً الذي لا تدرج فيه قضايا التحرش الجنسي والاعتصاب من قبل المستعمر إلا لماماً. واليوم يأتي أدب الاشتباك ليعبِّر عن حاجة المرأة للانعتاق عبر ربط معاناتها الخاصَّة بالمعاناة الجماعية، بالإضافة إلى تأنيث الخطاب الأدبي الفلسطيني عبر امتلاك الجرأة على البوح، وإعلاء الصوت الأثوي.

تحرير المتن: أدب الاشتباك مع التاريخ

تتمحور رؤى أدب الاشتباك حول إمكانات قراءة التاريخ الخاص بالمضطهدين والمستعمرين في سياقات استعمارية وشمولية ذات أبعاد مركزية، وذلك باعتبار أن إحدى أهم أولويات الاستعمار هي محو تاريخ المستعمر وإزالته واستبداله بتاريخ وثقافات وأطر المستعمر التي سعى من خلالها نحو إقناع المحيط بأهمية التاريخ المرتبط بحركات المعرفة الغربية ذات الارتباطات الاستعمارية والسلطوية. وهذا ما يتطلب من المثقف الاشتباك مع هذا التاريخ كتيار معرفي واسع عبر مؤصعته ضمن سياق استعماري.

إن إنكار الوشائج وطمس العلاقات بين معارف وعلوم القرن التاسع عشر التنويري على الأقل، والاستعمار وانتشاره خارج أوروبا المركزية، ما هو إلا إجراء آخر من الإجراءات التي تؤكد على الموقعية الشاهقة للتاريخ بصفته تاريخاً غربياً لا مكان فيه لمن ليس غربياً. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الاسترداد التاريخي الذي يقوم به المقهور هو استرداد إقصائي يمارس من خلاله الأدوار المركزية والشمولية ذاتها التي مارسها قاهره بحقه، بل على العكس تماماً فإن الاشتباك مع التاريخ على هذا النحو يكفل تسطيحه وفتح آفاقه وزرع احتمالاته الرحبة والكونية القائمة على تعدد الأصوات وحضور السرديات المنفتحة ونبذ السرديات المغلقة على ذاتها والقائمة على أسس تصنيفية وفئوية وعنصرية.

لقد سعى الاستعمار في سياساته المعرفية العنفية في تطبيقاتها إلى إقناع الشعوب، التي يستعمرها باسم الحضارة والقيم الإنسانية، بالإمعان أكثر في تفكيك إنسانية هذه الشعوب، وإقصائها عن متن التاريخ بصفته كائنات غير تاريخية. وهذا، بلا شك، هو ما تمارسه منظومة الاستعمار الصهيوني منذ نشأتها بحق الفلسطينيين ووجودهم التاريخي في أرضهم، حيث تمارس هذه المنظومة عنفاً تاريخياً مدعماً بأبعاد دينية وقومية عنصرية إزاء التاريخ الفلسطيني بتمثيلاته المتعددة، الثقافية منها والأثرية والفولكلورية واللغوية والجغرافية، بما يهدف في نهاية المطاف ليس إلى إزالة التاريخ الفلسطيني وإبعاده عن متن التاريخ العام فحسب، وإنما يهدف لزعزعة ثقة الفلسطيني بقدرته على مواجهة هذا العنف التاريخي شديد الوطأة.

إن الحركة الصهيونية في سعيها الدائم نحو الاستحواذ على السردية التاريخية، وتحميلها بحمولة الدين ومشهديات التوراة، تحوّلت إلى حركة ما فوق تاريخية في تعاملها مع الفلسطيني ككائن أرضي ولكن غير تاريخي. إلا أن عملية مواجهة هذا العنف التاريخي الإقصائي قد بدأت بالفعل، وذلك من خلال التحرر من معتمدات كتابة التاريخ وتمثيله في السياق المعرفي الغربي، إذ أصبح بالإمكان إعادة كتابة التاريخ الخاص بالمقهورين والمستعمرين من خلال أصواتهم هم. ولربما يمثل تيار التاريخ الشفوي ودراسات التابع والدراسات الأصلانية مراجع هامة في هذا الجانب بعد أن جرى استخدامها في العديد من البلاد التي عانت وما زالت تعاني من تأثيرات الاستعمار. وقد بات من الواضح رؤية مشهدية تاريخية مغايرة لإجراءات وسياسات التاريخ المركزي الغربي وطقوسيته التي طالما حرمت غير الغربي من الدخول إلى معبد التاريخ لكتابة تاريخه الخاص وتدوينه.

وفي الحالة الفلسطينية، التي باتت مرتبطة أكثر من أي وقت مضى بجماعات وقطاعات كونية معدّبة ومضطهدة، يمكن القول إنَّ ثمة إرثاً شفهياً هائلاً منذ النكبة سنة 1948 على الأقل، يمكن البناء عليه وإدراجه في تمثيلات متعدّدة المستويات. وهذا ما جرى بالفعل ضمن مبادرات جماعية وفردية، غير أنّ هذه الشفاهة التاريخية لم تتحوّل بعد إلى سردية تاريخية قادرة على مواجهة السردية الصهيونية الاستعمارية من حيث انتشارها، وهذا ما يتطلب كتابة التاريخ على قاعدة الاشتباك بكلّ تفاصيله مع النقيض المستعمر والمهيمن، وذلك من خلال امتلاك جرأة كتابة التاريخ بحبر الاشتباك، وإقامة أكثر من سياق متعدّد الأصوات في سبيل كتابة هذا التاريخ بعيداً عن أيّ طقوسية إقصائية. ففي سبيل حفظ الحكاية وكتابتها "كما حدث بالفعل"، ربما يجب أن يكون هناك مكان لكلّ من يؤمن بضرورة كتابة السردية التي تكفل تمثيل وحفظ وحماية أصوات المقهورين وحكاياتهم وتنهدياتهم وأحلامهم. إنّ التاريخ ليس مجرد أحداث كبيرة يكتبها المنتصر والقاتل والمستعمر، بل هو أيضاً التفاصيل والهوامش والمسكوت عنه.

ليس ثمة تردّد اليوم في كتابة تاريخنا وسردياتنا كما نشاء نحن ويشاء وجعنا التاريخي. فغزة اليوم ليست بحاجة إلى أسس ومعمّدات ونماذج تاريخية غربية لكي تكتب دماءها ودمارها وتُجرى عملية تدوين الإبادة الجماعية التي مورست بحقّ الشعب الفلسطيني هناك. لكنّ غرة بحاجة إلى اشتباك من نوع مغاير قادر على هزّ العالم بسرديات ومرايا وأصوات وألوان طالما كانت غائبة عن ضميره وميادينه المعرفية والثقافية.

من تمثيلات أدب الاشتباك

1. كينونة النكبة الكولونيالية

لم يكن القرن التاسع عشر مجرد عهد من الثورات وبزوغ القوميات والأنوار التي عمّت بقاع أوروبا المظلمة، بل كان قرناً لتأطير وأدلجة السيطرة والعنصرية وتقسيم العالم وفقاً لرؤى وأعباء الرجل الأبيض، ليأخذ الاستعمار الغربي منعرجاً مفارقاً لنشأة وتطور الموجات الاستعمارية على مدار التاريخ. وبهذا بات الاستعمار بصيغته الحديثة والمعاصرة شأناً من شؤون الخطاب الغربي المتحرّر من محدّدات المقدّس بنسخته البابوية السلطوية، وفي الآن ذاته بات مُحملاً بقدر من رموز ودلالات ومفاهيم المقدّس وفق رؤية صارمة تستدعي الأساطير القومية الضاربة في القدم وتبعثها من رقادها. وإذا ما امتزج المقدّس مع الأسطوري فإنّ هذا يكفل حتماً إعادة بلورة القومية بحيث تغدو مؤسسة على قواعد فوق تاريخية وحصريّة ليس فيها مساحة لأيّ آخر شادّ عن هذه القواعد. وهذا ما جرى على سبيل المثال عندما بُعثت القومية الجرمانية من سحيق التاريخ في سياق القرن التاسع عشر وفق المعادلة الهوية الرهيبة والمغلقة (2=1+1). وأيّ آخر لم يساو اثنين كان مصيره أن يقع ضحية نتيجة هذه المعادلة الكارثية التي قادت إلى المحرقة النازية.

وفي هذا السياق المتعالي للاستعمار نشأت الحركة الصهيونية، التي استفادت ببراعة، من سياسات وإجراءات ومعادلات الاستعمار الأوروبي الغربي، إذ جاءت إلى فلسطين بحمولتها التوراتية المعدّلة حديثاً، لتغدو القومية

اليهودية الصهيونية المخترعة لاهوتاً سياسياً مغلقاً على الذات الصهيونية الحديثة. وعندما يجري التعامل مع الحركة الصهيونية على أنها مجرد حركة انعتاق قومي وفق التأكيد والتصنيف الصهيوني، تُنزع عنها صبغتها الاستعمارية. فالتأكيد على كولونيالية هذه الحركة يسلب الضوء على أهم مضامينها. ومن هنا، تتحوّل معادلة $(2=1+1)$ إلى كينونة خلق تامّة وليست مجرد معادلة ومجموعة وصفات للإقصاء. كينونة شاملة لا حدود لطموحاتها وتطلّعاتها وأهدافها، ولم تخلق فحسب الإنسان الصهيوني الأشكنازي الأبيض والمهيمن، بل خلقت كذلك الآخر الفلسطيني المنكوب والمستعمر. وبهذا تصير الكينونة قائمة على كائن كولونيالي صهيوني مستعمر وكائن كولونيالي فلسطيني مستعمر، لتتجلّى هذه الكينونة في اللحظة الصهيونية الحاسمة ألا وهي نكبة 1948. والتي نتجت بدورها واستكملت عدّة نكبات تمهيدية سبقتها، كموجات الهجرة الاستعمارية والاستعمار البريطاني. وبهذا المعنى، لا تغدو النكبة حدثاً فلسطينياً بل صهيونياً تماماً ومستمرّاً وزاحفاً. غير أنّه وفي السياق ذاته، أصبحت الكينونة الفعلية التي خلقت دولة الكيان الصهيوني، بكافة تمثيلاتها، وخلقت أيضاً الفلسطيني المشوّه، إذ إنّه وما قبل النكبة، أي السياق التاريخي للسياسات الصهيونية الكولونيالية، لم يكن ثمة فلسطيني مشوّه باللجوء والقتل والإبادة والإبعاد والأسر والملاحقة والمنفى والشتات ومصادرة الأرض... أي أنّ الفلسطيني ككائن مستعمر أنتج صهيونياً، وفق إجراءات ومسارات معرفية سلطوية صهيونية استعمارية. ولكن هذه الكينونة الكولونيالية عجزت عن تفكيك واختراق ما سعى إليه الفلسطيني من سردية وهوية وطنية. وبالتالي، فقد واجه الفلسطيني عملية خلقه وتفكيك إنسانيته الخارجية الصهيونية من خلال إعادة خلق نفسه داخلياً، وهذا ما تجلّى في سياق تطور الحركة الوطنية الفلسطينية، التي سعت نحو تأسيس قواعد المواجهة والكفاح الذي يكفل تحطيم الكينونة الصهيونية الكولونيالية.

غير أن تحطيم هذه الكينونة وتفكيكها لا يقف عند حدود المقاومة الفيزيائية المباشرة بكافة أشكالها، بل يجب الانطلاق من الداخل، من العالم الجوّاني لهذه الكينونة، والمتمثّل بتصوراتها ورواها وتقنياتها ومقولاتها الأخلاقية. أي أنّ المقصود هنا هو أنّ الفلسطيني لا فكاك له من هذه الكينونة إذا لم يقم بتفكيك أسسها فوق التاريخية واللا-إنسانية، عبر سردية ناتجة عن الاشتباك مع الوعي الصهيوني العنصري والإقصائي. وبقدر ما يفكّ الفلسطيني سردية الكائن الصهيوني المستعمر بقدر ما يغدو قادراً على استعادة إنسانيته وملاحح هويته البعيدة كل البعد في هذه الحالة عن العنصرية. وبهذا المعنى، تصبح عملية الاستعادة والتفكيك مزدوجة، وقادرة على تحطيم مرايا الصهيوني المشوّهة والمعطوبة عبر إنزاله من خالق صهيونيته الكولونيالية إلى إنسانية أقصتها الحركة الصهيونية منذ نشأتها عن متن سرديتها الشاملة—هذه السردية التي أحالت "اليهودي الناثق" والملاحق والضحية في أوروبا القومية العنصرية، إلى قاتل متسلسل مأزوم ومذعور في الوقت نفسه من مخاطر وجوده. إنّه قاتل عنصري مصاب بأعتى حالات الفصام، والتي تجلّت بأبشع صورها في عدوان الإبادة الجماعية المستمر على غزة، وذلك حين قام أحد ضباط الجيش الصهيوني بإهداء ابنته بمناسبة عيد مولدها تفجيراً ومسح حياً كاملاً من أحياء غزة عن وجه الأرض. إن هذا ما يؤكّد في النهاية ضرورة أنسنة هذا الضابط لكي يقوى الفلسطيني على هزمه أخلاقياً وسردياً وكفاحياً، بل يتوجب علينا تفكيك لا-إنسانيته من خلال أنسنته حتى نستعيد استحقاق إنسانيتنا في ملاحظته وهزيمته.

2. الاشتباك مع المعاناة لا اعتيادها

في سعي السياسات الاستعمارية نحو الترسخ العميق للبنية المسيطرة داخل العلاقة بين المستعمر والمستعمر، لا يعود الأمر يتعلّق فقط بتطبيع العلاقة بين الطرفين، وإنما يتجاوز ذلك لينتقل إلى مستويات أخرى تصبح فيها السياسات الاستعمارية كافةً سياسات قائمة على إنتاج وخلق وقائع جديدة على الأرض ملموسة وواضحة المعالم، بل وتشكيل تلك التفاصيل الصغيرة التي لا تكاد ترى. تفاصيل لا ملموسة تشرع بالإحاطة بالكائنات المستعمرة لكي تخترقها في نهاية المطاف وتغدو جزءاً مُكوّناً من أولويات الصمود والتحدّي للمستعمر.

وفي الحالة الاستعمارية الصهيونية تُعدّ عملية إنتاج المعاناة، وإحالتها إلى شأن طبيعي مليء بالتفاصيل الصغيرة التي تحيط بالفلسطيني المستعمر جزءاً من السياسات القاضية بتعويد هذا الأخير على المعاناة، لتصبح جزءاً من شؤونه الحياتية اليومية، وتحوّل في الخطاب الوطني المقاوم للاستعمار إلى صمود أسطوري. غير أنّ الصمود، في هذه الحالة، هو صمود مُزيّف وصبر من المفترض ألا يكون شأناً طبيعياً، تحديداً عندما يشرع بالتمدّد والإقامة منذ أكثر من ثمانين عاماً.

إن البنية الاستعمارية الصهيونية هي بنية قائمة على أسس واضحة، يكون الهدف منها الإقصاء النهائي للوجود التاريخي للفلسطينيين. وعليه، فإنّ السياسات التي تعتمدها هذه البنية وتبلورها هي سياسات دقيقة ومكثّفة ومتجدّدة بصورة مذهلة ودائمة. فلم تنجح فقط في تعويد الفلسطيني المنهوك من التطهير العرقي الزاحف بكافة صوره على تحمّل المعاناة والتعوّد عليها، بل جعلت العالم بأجمعه يدمن الاعتیاد على مشاهدة صور الدمار والإبادة الجماعية في غزة والضفة المستعمرتين، على أنّها مشاهد "طبيعية" لا ضير من ذرف قليل من الدموع عليها، والإعراب عن قليل أو كثير من التضامن مع أولئك الذين يعانون. ومن هنا، فثمة فرق شاسع بين تحمّل المعاناة والاعتیاد عليها وبين رفضها ومقاومتها، فالتعوّد يمنح المعاناة بالبقاء، بل لا إن التعوّد يمنح الكائن المستعمر ضمانات للتمويه والتحايل والالتفاف على سياسات المستعمر دون مقاومتها ورفضها. وأمّا المقاومة فهي الردّ الطبيعي على اللا-طبيعي والإعلان الصريح والواضح عن هذا الرفض.

ومن سياسات المستعمر الصهيوني الرامية إلى تكديس المعاناة في حياة الفلسطينيين، هي سياسة احتجاز زمن الفلسطيني وتعطيل حركته، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه هنا "الإبادة الزمنية" الممنهجة للزمان والمكان الفلسطيني، من خلال حواجز التفتيش الكولونيالية المنتشرة في مختلف أرجاء الضفة المستعمرة، إذ الهدف النهائي من وراء هذه الحواجز، ليس القضاء على "التهديد الأمني" والمخاطر المحتملة التي قد يتسبّب بها الفلسطيني، بحسب الادّعاءات الصهيونية، بل هو خلق جيّز زمني ومكاني معيّن ومحدّد وثابت ومتخلّف للفلسطيني، من جهة. ومن جهة أخرى، يتم تعزيز حضور حاجز التفتيش في الذهنيّة الفردية والجماعية للفلسطينيين. وبهذا يشرع الفلسطيني بالبحث عن بدائل والتفافات أخرى تتجاوز حاجز التفتيش وهجمات واعتداءات المستوطنين الفاشية اليومية. وعلى سبيل المثال، فثمة مجموعات فلسطينية واسعة على مواقع التواصل الاجتماعي تعمل على

تداول المعلومات حول كيفية إيجاد طرق بديلة لحواجز التفتيش، كما أن هناك إذاعات فلسطينية محلية تقوم ببث نشرات سريعة حول أماكن تواجد حواجز التفتيش، وما إذا كان هناك أزمة مرورية عليها. والأمر من ذلك أن ثمة تطبيقاً إلكترونياً فلسطينياً جرى تصميمه من أجل تسهيل حركة الفلسطينيين والتحليل على حاجز التفتيش عبر تقديم خدمة الطرق البديلة.

هنا يكمن التعمُّد على المعاناة عبر التحايل عليها دون الخلاص منها لتصبح جزءاً من أولويات الصمود الفلسطيني الأسطوري في وجه أعتى استعمار في التاريخ، إلا أن هذا ليس صموداً، بل تذويماً للمعاناة التي تصبح في هذه الحالة شأنًا فلسطينياً وطنياً. وعلى ذلك، لا تعود مشهديات حواجز التفتيش الكولونيالية تزعم الفلسطيني لدرجة أنها تقلب انزعاجه إلى دافع من أجل مقاومة الحاجز اللا-طبيعي. فتحمل المعاناة هنا يتطلَّب التحايل والتمويه وليس المقاومة ورفض المعاناة. إنَّ المعاناة بصورتها الاستعمارية ليست قدراً ومصيراً محتوماً للفلسطيني ولا مفرَّ منه، وهذا ما يتطلَّب من الفلسطيني نزع الطبيعي عن اللا-طبيعي، ونزع الشرعية الوطنية أيضاً عن صمود ليس بصمود وإنما هو تحايل، ولربما للأسف هو استسلام في بعض الأحيان. وهناك فرق أيضاً في مستويات الصمود وتحمل المعاناة في السياق الفلسطيني المقاوم، فالصمود والبقاء الفلسطيني للفلسطينيين في غزة في أوج الإبادة الجماعية أثناء العدوان، وإفشال هذا الصمود لكافة محاولات إقصاء الوجود الفلسطيني وتهجيده من غزة، هو صمود مقاوم وجزء لا يتجزأ من عملية المقاومة الشاملة. ولكن مشاهد الدمار والخيام الممزقة والغارقة بالمياه يجب ألا تتحوَّل إلى مشاهد معاناة يومية طبيعية يجري تغليفها بقدرة الغزيين الأسطورية على تحمُّل المعاناة والصمود في وجه من سمح العالم الحرُّ له بتدمير غزة وإبادتها، ليسمح هو للعالم فيما بعد بإدخال خيام ومساعدات شحيحة الإنسانية ليؤكِّد عبر سياساته اللا-مرئية على أنَّ تدمير غزة هو شيء طبيعي. لا بل إنَّ الأدهى والأمر من ذلك هو اعتبار أنَّ معاناة الفلسطينيين هناك هي شأن طبيعي يجب أن يعتاده الفلسطيني والعالم بأسره أيضاً!

3. كل التفاصيل استعمارية... حتى الشتاء

في سعي نظام الأبارتهيد الكولونيالي الصهيوني للترسيخ الدائم لمنظومة سيطرته الشاملة على الفلسطيني المستعمر، فإنه يلجأ إلى مراعاة كافة التفاصيل والمحددات التي تكفل الخلق المستمرِّ والمبتكر للتحديات والعقبات التي تتكدَّس في سياق العلاقة بين القاهر والمقهور. إنَّ الإبادة الجماعية الشاملة التي يعاني منها الفلسطينيون منذ نكبة 1948 الاستعمارية، لا تتجلَّى فقط بأبشع صورها المتمثلة بالمجازر والمذابح التي اقترفتتها منظومة الاستعمار الأمنية والعسكرية، بل في التفكيك الزاحف والبطيء لإنسانية الفلسطيني عبر محاصرته ومحاربتة بتفاصيل صغيرة، الهدف منها اختراق وعيه. وبالتالي تذويت المعاناة والانكسار والهزيمة، وليس كيَّ وعيه فحسب، بل استبداله بوعي آخر يشرع بإنتاج عبثية ولاجدوى مقاومة الاستعمار الصهيوني.

إن هذه التفاصيل الصغيرة تكمن في الجوهر الناظم والموجه للعقلية الصهيونية الاستبدادية المهووسة دوماً بالإقصاء والتمييز والعنف الرسمي، أي العنف المحروس بتشريعات وفتاوى القتل والإبادة وفق الرؤية

الصهيونية. كما أنّ هذه التفاصيل تمارس مهمة مزدوجة، فهي بالدرجة الأولى ناتجة من الجوهر الصهيوني. وعليه، فثمة سياق داخلي صهيوني تنشأ وترعرع فيه هذه التفاصيل، بدءاً من الصف الدراسي وانتهاءً بصف الجنود الماضين إلى ممارسة الإبادة الجماعية دون أدنى تردّد. وبهذا تبدأ عملية إعادة خلق الفلسطيني وتفكيك إنسانيته وإحالاته إلى مجرد كائن مسخ داخل السياق الصهيوني بكافة مستوياته من خلال حشو هذا السياق بأكبر قدر ممكن من التفاصيل التي تحجب المستوى الأخلاقي بحمولته الثقافية والاجتماعية وتفصله عمّا تقتضيه المنظومة الأمنية والحربية من إبادة. وهي بالدرجة الثانية تمارس الردع والسحق وعبثية المقاومة والتوغل حتى أقصى درجة في أعماق الوعي الفلسطيني.

ومن هنا، لا ينبغي أن يتفاجأ أحد من أنّ واحداً من أعنى الجيوش في العالم يحتاج البلدة القديمة في نابلس، لكي يقتحم أحد أشهر محالّ الحلويات التي تقدّم الكنافة النابلسية الشهيرة فيأخذ الجنود ما يشاؤون منها على فوّاهات بنادقهم وفي عملية استعراضية مثيرة للتقزز. ولا يستغربن أحد أيضاً أنّ المنظومة الأمنية الصهيونية الرهيبة والتي تحوز أفضل الوسائل التكنولوجية والإلكترونية في العالم، تقوم الآن بمحاربة أطفال غزة بحرمانهم من الأحذية، لا بل الإصرار على ذلك وتعزيزه على الأرض بتفاصيل أخرى من قبيل حرمان أهل غزة الساعين للنجاة من الإبادة، من سلع أساسية أخرى لا تهدد أمن المستعمر الصهيوني، ولكنّها في حال وصولها إلى غزة قد تؤدي إلى تعزيز صمود المقهورين. والأهم من ذلك أنّها لن تؤدي إلى انقلاب حادّ في هموم وتطلّعات الفلسطيني. هنا بالتحديد يبرز الهدف الأهم لإنتاج التفاصيل الصغيرة، ألا وهو تبديل الأولويات لتصبح أولوية الحصول على حذاء أهم من أولوية مقاومة من يحرمني هذا الحذاء، وصناعة وإعداد الكنافة وتقديمها لم تعد شأناً محلياً، وباتت أولوية من يُعدّها التصالح مع فكرة أنّ الجندي القادم لقتلك سيقوم بتذوق الكنافة فوق جنتك، دون أدنى تردّد.

إنّ منظومات القهر الاستعماري الكبرى، وعلى مدار تاريخها المرير والفظيع، كانت تحرص قبل نقل مدافعها إلى ما تتوخّاه من سحق وقمع في العوالم اللا-منتمية للمركزانية الغربية الإقصائية، وكانت تشحن مجتمعاتها الأمّ بأكبر قدر ممكن من وهم البقاء الحضاري والإنساني وذلك العبء المحبّد والمريض للرجل الأبيض الذي طالما أخذ على عاتقه مهمة إصلاح العالم وتخليصه من العقبات التي تقف في وجه التقدّم الحضاري والعقلاني بصيغته الغربية. إنّ هذا هو ما يمارسه الآن وهنا نظام الأبارتهايد الكولونيالي الصهيوني بحقّ الفلسطينيين، والذي يصرّ دوماً على ضرورة التمييز بل ورفض المقارنة بين شتاء غزة القارس وشتاء ستالين جراد الرهيب في إبان الحرب العالمية الثانية ومحاصرتها من قبل الآلة الحربية النازية الفظيعة. إنّ دولة الإبادة إنّما تفعل ذلك لتحاصر التفاصيل الصغيرة، وتباغت كل من يجرؤ على مقارنة ممارسات الاستعمار الصهيوني بمنظومات فاشية وعنصرية أخرى، وأتّهامه بمعادة السامية وإنكار المحرقة النازية. وهنا، أيضاً، تنقلب الأولويات من انتقاد ومقاومة المنظومة الأخلاقية والمعرفية الصهيونية، إلى الدفاع عن الذات ونفي تلك الاتهامات وإنكارها، والتخلّي الإجباري عن واقع غزة المرير المنهك من زمهرير الشتاء الصهيوني الاستعماري.

غير أنّ الوقوف في وجه هذه التفاصيل الصغيرة ليس أمراً مستحيلاً، والسبيل إلى مواجهتها يتجسّد بضرورة إدراك

الفلسطيني أنّ المسألة لا تكمن في الصاروخ والقذيفة والرصاص، بل في الوعي. نعم، إنّ الصراع منذ البداية كان صراعاً على الوعي والثقافة والمعرفة والسردية. ولهذا، يتوجّب على الفلسطينيين اليوم محاربة التفاصيل الكولونيالية من خلال المقاومة الشاملة، المنطلقة من الوعي بالصمود والبقاء وضرورة المواجهة بدءاً من الحكاية المعبأة بالأمل، فالأمل اليوم في أوج الإبادة وشتاء غزة الاستعماري ليس ترفاً أو مفردة في نصّ شعري، بل بات الأمل تعويذةً وسلاحاً في سبيل البقاء وحماية الوعي الفلسطيني من تفاصيل المستعمر الصغيرة

مرجعية

- هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦).
- باسم خندقجي، "أثر سياسات المعرفة في الخطاب البحثي الأكاديمي"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 128 (2021): 184-199.
- _____، "الإبادة الفردية في فلسطين المستعمرة"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 136 (2023): 108-126.
- _____، "دراسات من السجن: الجراءة في إنتاج المعرفة"، *الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية*، العدد 1 (2025): 119-102.
- وليد دقّة، "السيطرة بالزمن"، *أوان*، 16 حزيران 2021، شوهد في 3 كانون الثاني 2026.
- _____، *صهر الوعي أو في إعادة تعريف التعذيب* (بيروت: الدار العربية للعلوم-ناشرون، 2011).
<https://www.awanmedia.net/article/٦٠٤٦>
- _____، *الثقافة والإمبريالية*، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: دار الآداب، 2014).
- إدوارد سعيد، *الاستشراق-المفاهيم الغربية للشرق*، ترجمة محمد عناتي (القاهرة: رؤية للنشر، 2006).
- عبد الرحيم الشيخ، "الزمن الموقوت: نكبة فلسطين ومسارات التحرير"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 118 (2019): 16-26.
- _____، "المقبرة الفلسطينية الحية: التاريخ المفاهيمي"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 134 (2023): 85-120.
- _____، "الهوية الثقافية الفلسطينية: المثال، التمثيل، التماثل"، 9-143، في خليل شاهين (تحرير)، *التجمّعات الفلسطينية وتمثّلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية* (رام الله: مسارات-المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية، 2013).
- فرانز فانون، *بشرة سوداء، أفئدة بيضاء*، تعريف خليل أحمد خليل (بيروت: دار الفارابي، 2004).
- _____، *معدّبو الأرض*، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2013).
- روبرت يانغ، *أساطير بيضاء: كتابة التاريخ والغرب*، ترجمة أحمد محمود (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003).